﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سُـرعـةُ إنْـفـاذِ الملوكِ لمُرادَاتِهم

لمّا ذكَرَ في الآيةِ السّابقةِ جوابَ يوسفَ عليه السلام في تعبيرِ رؤيا الملكِ، ذَكَر هنا كيفيّةَ تَلَقّي المَلِك لجوابِ يوسفَ عليه السلام، ببيانِ ردِّ فِعلِه وانفعالِه لِما أفتى به يوسُفُ رسولَ الملِك، وكيف أنّه بعثَ في طلَبِه وإحضارِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَالُ﴾: البالُ: هو الحالُ الّتي يُكْتَرَثُ بها ممّا وقعَ في الرُّوعِ والنّفْس، وكلُّ أمْرٍ ذي قيمةٍ في باطِنِه يُقال له: بالٌ، فهو مُختصٌّ بالحال الّتي يَنطَوي عليها الإنسانُ. والمُرادُ بقوله: ﴿مَا بَالُ﴾ السّؤالُ عن حالِ النِّسوةِ المُسْتَرِيبِ في قضيةِ المُراوَدَةِ[1].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مُـكـافـأةُ المـلـوكِ لِمَـن أخـرَزَ لهم مَعْروفًا

وقال المَلِك لِلملأ: أَخْرجوا الرّجلَ المُعبِّرَ للرّؤيا منَ السّجن وأحْضِروه لي، فلمّا جاءه رسولُ الملك يَدْعوه، قال يوسفُ للرّسول: ارجعْ إلى سيّدِك الملِك، والتَمِسْ منه أنْ يسألَ النّسوةَ اللّاتي جرحن أيديَهنّ عن حقيقةِ أمرِهنّ وشأنِهنّ معي؛ لتَظهرَ الحقيقةُ للجميع، وتتّضِحَ براءتي، إنّ ربّي عليمٌ بصَنيعِهنّ وأفعالِهنّ لا يخفَى عليه شيءٌ من ذلك[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بول)، والرّاغب، المفردات: (بل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بول).

(2) مجمع الملك فهد، التّفسير المُيسّر، ص: 241.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ جملة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ ممّا قبلَها:

جملةُ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾ استئنافٌ نحويٌّ لبيانِ ردِّ الملك بعد بيانِ رُؤياه، أو الواوُ لعطفِ مَدخولِها على محذوفٍ مُقَدّرٍ تقتضيه القِصّةُ، والتّقديرُ: فانصرفَ السّاقي من عندِ يوسفَ عليه السلام، ورجعَ إلى الملِك بفتواه في الرّؤيا، فأمَر المَلِكُ بإحضارِ يوسفَ عليه السلام ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾[1].

مِنْ عَطايا الملوكِ التّقْريبُ والإذْناءُ مِنْ حَضْرَتِهم

عِلّةُ إيثارِ الملكِ فعلَ الإتيانِ:

الإتيانُ مجيءٌ بسهولة ويُسرٍ، وهو هنا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾ يُناسبُ حالةَ الخَلاص منَ السّجن بأمْرِ المَلِك من تسهيلٍ للإجراءاتِ وتيسيرٍ للأمر، فلا معوقاتٌ ولا موانعُ، لا سيّما وأنّ المَلِك يشعرُ بالسّرور والحُبُور من تأويل يوسفَ للرّؤيا بشكلٍ شعرَ المَلِكُ فيه بالرّاحة والطُّمأنينة لهذا التّأويلِ.

أمْرُ المَلِكِ مُتَحَقِّقٌ بيُسْرٍ وسَلاسَةٍ

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في جملةِ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ إيجازٌ بالحذف؛ لأنّ التّقديرَ: فلمّا عبّرَ يوسفُ عليه السلام الرّؤيا وجاء رسولُ المَلِك فقصّ عليهم قولَ يوسفَ عليه السلام، وأُعجبَ الملكُ بتأويله، فقال... فالمحذوفُ أكثرُ من جملةٍ، وهذا الحذفُ شائعٌ في النّظمِ القرآنيِّ في مقام القَصصِ، وهو حذفٌ واضحٌ ممّا يتقدّمُ عليه منَ الكلام ويتأخّرُ[2].

اسْتَغنَى بالمذكورِ إيجازًا واقتصادًا ولِوُضوحِ المَقصودِ منَ الخطابِ

دَلالةُ جمْعِ الخطابِ في قوله ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾:

جاء الخطابُ في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ﴾ على صيغةِ الجمع؛ لأنّه مُوجَّهٌ إلى جماعة الملأ المَسؤولين عن تصريفِ شؤون المَلِك، أو مَن يقوم مقامَهم في الدّيوان من مُوظّفي المِلك ومُساعِديه. فإن

الدُّنُوُّ منَ المَلِك بُغْيةٌ وراءَها ما وراءَها منَ الفُرَصِ

(1) صافي، الجدول: 12/447.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/130 - 131.

قيل: جرتِ العادةُ بأنّ هناك فردًا واحدًا يكونُ لصيقًا بالمَلِك ويتلقّى عنه الأوامرَ، فلِمَ جَمَعَ الخِطابَ؟ ويُجابُ عن هذا بأنّ ذلك لا يلزمُ، إذ منَ المُمْكِنِ أن يكونَ قال ذلك في مجلسٍ لا على انفرادٍ، والأصلُ حمْلُ الكلام على حقيقتِه، وإنْ كانَ قد خاطبَ واحدًا، فالجمعُ في الخطاب جارٍ على المجازِ لتعظيم أمْرِ المَلِك أو للمبالغةِ في اهتمامِه بالأمر أو لإكبارِ أمرِ يوسفَ ﷺ وفتواه، فإنّ الملوكَ إذا انْفَعلوا لِشأنٍ وأرادوه خاطَبُوا بالجمْعِ، فيقولون: هاتوا لي كذا، وافعلوا لي كذا، ولو كان المأمورُ واحدًا، ذلك أنّ المملكةَ كلَّها تتحرّكُ لأمرِه، فيُصدِرُ كلامَه وخطاباتِه بصيغةِ الجمْعِ ولو لم يكن أمامَه إلّا مُخاطَبٌ واحدٌ.

مَوقعُ جملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ ممّا قبْلَها:

الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾، ويصحّ أن تكون فصيحةً، فتكون الجملة معطوفةً على محذوفٍ مُقدّرٍ؛ أيْ: ففعلوا وأرسلوا رسولًا منهم، فلمّا جاءه الرّسول[1].

سُرعة الهرولة في إنفاذ مطلوب المَلِك

نُكتةُ العُدُولِ منَ الإتيان إلى المجيءِ:

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (وقال الملك جيئوني به) أو (فلمّا أتاه الرّسول) فعبّرَ بالإتيانِ أوّلًا، وبالمجيءِ ثانيًا، ونُكتةُ ذلك: أنّ الإتيانَ يُقالُ في المجيء بسهولةٍ، والإجاءةُ هنا سَهلةٌ لأنّها بأمْرِ المَلِك، والمجيءُ يُقال في الإتيانِ المُتحقِّقِ والمصحوبِ بنوعِ مَشَقّة، ولذا قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يقل: (أتاه)؛ لأنّه أتى إليه بتكليفٍ، والتّكليفُ مشمولٌ بالمشقّةِ، وهو هنا إتيانٌ مُتحقِّقٌ بالفعل، وليس على وشَكِ التّحقُّقِ أو على وجْهِ القصد، ولذا ناسَبَه المجيءُ[2].

ما اقْـتَرَبَ من حَيّزِ المَلِكِ سَهُلَ ولَانَ

وَجْهُ تعريفِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

(أل) في الرّسول عهديّةٌ، وهو مُعرّفٌ بوصْفِه النّاجي، صاحبَ

لفظُ (الرّسول) يُناسبُ فَخامةَ المُرسِلِ والمُرسَلِ إليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/288.

(2) الهَرَويّ، الغريبيْن، والرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 166، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتى).

الرّؤيا الّتي فُسّرت من لَدُن يوسفَ ﷺ داخلَ السّجن. والتّعبيرُ عنه بهذا اللّفظ يُناسبُ مقامَ كلٍّ منَ المُرسِل والمُرسَلِ إليه وفخامتِهما، وأهمّيةَ الرّسالة الّتي يحملُها.

نُكتةُ سياقِ الحدَث بأسلوبِ الشّرطِ:

مُعامَلَةُ الملوكِ تكاليفُ وأجْزِيَةٌ

جملةُ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ﴾ صُدِّرت بـ (لمّا) الحينيّةِ الشّرطيّةِ غيرِ الجازمة، وهي تستدْعي فِعلَيْن ماضيَيْن، الأوّلُ: فعلُ الشّرط، والثّاني جوابُ الشّرط، وتُفيد الظّرفيّةَ الزّمانيّةَ، ومعنى شرطيّتِها مُوجَبٌ: فهي أداةُ وجودٍ لوجود؛ أيْ: وجودُ الجواب لوجودِ الشّرط، فهي تفيدُ تَحقُّقَ الجوابِ بتحقيقِ الشّرطِ، ومعنى التّحقّقِ ظاهرٌ في مجيء فِعْلَي الشّرطِ وجوابِه ماضيَيْن، وهي ظرفيّةٌ بمعنى (حين)، فحين وقعَ الشّرطُ حصلَ الجوابُ، فحينُهما واحدٌ، ولذا جاءا ماضيَيْن. ونُكتةُ مجيء الكلام بأسلوب الشّرطِ، فلم يقل: (فجاءه الرّسول فقال ارجع) على الخبرِ المحضِ، لإفادةِ أنّ مَقولةَ يوسفَ ﷺ للرّسول كانت لازمةً عن مضمونِ مجيئِه إليه ومسبَّبَةً عنه، ولو قال: (فجاءه الرّسول فقال ارجع إلى ربك) لاحتملَ أنْ يكون يوسفُ بادَره بمقولته: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ من تلقاء نفْسِه من غير أن يكون ناجِمًا عن غرَضِ مجيئِه إليه[1].

سِرُّ التّعبيرِ عنِ المَلِكِ بلفْظِ ﴿رَبِّكَ﴾:

تَلْبِيةُ طلَبِ المَلِك مَشروطةٌ برفْعِ الحَيْفِ

معنى الرّبِّ هنا: السّيدُ والصّاحبُ، فربُّ الشّيء: صاحبُه[2]، والمَعنِيُّ به الملكُ، ولذلك أضافه إلى ضمير الخطابِ (الكاف) العائدِ إلى الرّسول. وفي اصطفائِه دونَ لفظ المَلِك لِما يحملُه لفظُ (الرّب) من معنى إصلاحِ الشّيء، يُقال: ربَّ فلانٌ ضيعتَه، إذا قام على إصلاحِها. واللّه جلّ ثناؤه الرّبُّ؛ لأنّه مُصلحُ أحوالِ خَلْقِه، والموضعُ

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/627.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن واعرابه: 3/114.

هنا موضعُ طلبِ إصلاحِ خطأِ سجنه وتصحيحِه ﷺ، ففي التّعبير به إيماءٌ باشتراط رفْعِ الجَوْرِ الّذي وقع عليه لتلبيةِ طلبِ المَلِكِ.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في جُملةِ الشّرطِ:

لا يَتَمهّلُ في تقريبِ المَلِك له إلّا مُسْتَغْنٍ بِعزّةِ الحقِّ

في الجملة الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ﴾ حذْفٌ لمضمونِ غرَضِ المجيء إيجازًا، لوضوحِه بدلالةِ ما قبْلَه عليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾، والتّقديرُ: فلمّا جاءه الرّسول أخبره بغرَضِ المَلِكِ في الإتيان به، فقال له: ارجعْ إلى ربّك[1].

الاقتصادُ في الكلامِ من خُصوصياتِ القرآنِ

وتمامُ تقديرِ الحذْفِ الكثيرِ الّذي أغنى عنه المذكورُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: فأرسَلوا إلى يوسفَ في سجنِه رسولًا يُبلّغُه أمرَ الملك، فدخلَ عليه فبلّغه رغبةَ المَلِك في إخراجه منَ السِّجن والقدومِ إليه، فلمّا عرف يوسفُ ﷺ ما يريدُه الملكُ قال لرسول المَلِك: ارجع إلى ربك. فرجع الرّسولُ إلى المَلِك، وقصَّ عليه ما قاله يوسفُ ﷺ[2].

مَوقعُ جُملةِ ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ ممّا قبْلَها:

دَرْءُ المفسَدةِ قَبْلَ جَلْبِ المصْلَحةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملةِ مَقولِ القول في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فهي من تمامِ مَقول القولِ، والعطفُ بالفاء أفاد أنّ السّؤالَ المذكورَ غرضٌ للأمر بالرّجوع وعِلّةٌ له[3].

بَلاغةُ المَجازِ في لفْظِ السّؤالِ:

اهْتِبالُ الفُرصَةِ في إظهارِ الحقيقةِ بواسِطةِ النّفوذِ الأعلَى

التّعبيرُ بالسّؤال في قوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ مجازٌ قُصِدَ به تحرّي المسؤولِ وإقرارُه، إذِ السّؤالُ هو في أصله: طلبُ معلومةٍ ليستْ عند السّائل، ويوسفُ ﷺ عالمٌ بالأمر المسؤولِ عنه، وإنّما يريدُ تحريضَ المسؤولِ للبحثِ والتّحرّي في المسؤول عنه لِتظهر براءةُ يوسُفَ له. فقوله:

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/251.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.
(3) صافي، الجدول: 12/447.

﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ كنايةٌ عن لازمه وهو دِراسةُ المَلِك وتحقيقُه لِمضمون السّؤال، إذْ يَلزمُ قبْلَ إظهارِ العِلم للسّائل إحاطةُ المسؤول بالمعلوم أوّلًا[1].

معنى ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا بَالُ﴾:

تَحرّي الحقيقةِ بالسُّؤالِ عنها لإطْلاعِ النّاسِ عليها

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ استفهاميّةٌ في محلّ رفعٍ مبتدأ، و﴿بَالُ﴾ خبرٌ، ويُستفْهَمُ بـ ﴿مَا﴾ عن حقيقة الشّيء عاقلًا، أو غيرَ عاقل[2]. والمُرادُ بالاستفهام هنا سؤالُ النّسوة عمّا عرفْنَه عن يوسفَ عليه السلام ساعةَ دخل عليهنّ، هل لَمسنَ فيه ريبةً؟[3].

سِرُّ اصْطِفاءِ لفْظِ ﴿بَالُ﴾:

تَحْديدُ القَصْدِ والبحْثُ عنه من أهمِّ مُحدِّداتِ القانونِ

لم يقل في السّياق الكريم: (ما حال النّسوة؟ أو: ما شأنُ النّسوة؟) للإلماحِ إلى الحال الباطنةِ الّتي ينطوين عليها، فهو يسألُ عنِ الغرَضِ النّفسيِّ الّذي أدّى بِهنّ إلى أنْ يُقطِّعنَ أيديَهنّ، فتعيينُ لفْظِ (البال) أوضحَ عن قصدِه في البحثِ والتّحَرّي الدّقيقِ عن خلاصةِ الحقيقةِ وعدمِ الاكتفاء بظاهرِ الحال أو بما يُشاعُ، وهذا التّوجيهُ مؤسَّسٌ على كوْنِ البالِ ألصقَ بالحال الباطنةِ الّتي يَنطوي عليها الضّميرُ، ولذا عبّرَ به؛ لأنّ السّؤال في موضوع النّسوةِ محلّ حرجٍ وسِرّ، فهو مَظِنّة أنْ يُكتفى فيه بالظّاهر أو تُمَوّه فيه الحقيقةُ، فاحترز في سؤاله بتعيين ما يُفيد تحرّي الأسرار وإعلانَها بعد التّحقيق فيها[4].

موقعُ جُملةِ الاستفهامِ ﴿مَا بَالُ﴾ ممّا قبْلَها:

تَسْهيلُ المُهمّةِ بتَعْيينِ المطلوبِ وتَحْديدِه

جملةُ: ﴿مَا بَالُ﴾ تفسيريّةٌ لقوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾؛ لأنّ في السّؤال معنى القولِ دونَ حروفِه، أو استئنافٌ بيانيٌّ، فبينَها وما قبْلَها شِبهُ كمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.
(2) محمود، الجدول: 12/448، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/261.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/130.
(4) الرّاغب، المفردات: (بل).

اتّصالٍ، كأنّه قال: (ماذا أسأله)، أو في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به للفعل ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ المُعلّقُ عن العملِ في معموله لفظًا لا معنى بسببِ الفصْلِ بما له حقُّ الصّدارةِ وهو الاستفهامُ[1].

بَلاغةُ صَوْغِ مضْمونِ السّؤالِ: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾:

الاخْتِراسُ في الأسْلوبِ عندَ خِطابِ ذَوي الشّأنِ العالي

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (فسأله أنْ يُفَتِّش أو يُحقِّق في حال النّسوة)، لئلّا يتضمّنَ موضوعُ السّؤال تكليفًا للملك فيكونَ جراءةً عليه ومُخالفةً لأدبيّات الحِوار معه، ووجْهُ ذلك: أنّه إذا قال: اسأله أنْ يُفتّش أو يُحقّق يكونُ قد أرشده إلى ما يجبُ عليه أنْ يفعلَه، والملوكُ لا تُخاطبُ بكيفيّاتِ إجراء الأمورِ؛ لأنّ فيه تعريضًا بهم بظَنِّ وادّعاءِ فواتِ كيفيّة إدارةِ الشّؤون عنهم، ولذا أجرى السّؤالَ بما لا يتضمّنُ إرشادًا أو إحراجًا، ولأجلِ أنْ يشتملَ السّؤالُ على قدْرٍ منَ الإبهام يَسْتفزُّ المَلِك ويُحفّزُه على تجْليتِه وكشْفِه، وإجراءُ الكلام على أنْسَبِ أسلوبٍ وأرفَعِ طريقة هو من حكمةِ النّبوّةِ ومعالِمِها وأمارةِ تأييدِ الله لأنبيائه بجوامعِ الكَلِم وفصْلِ الخِطاب[2].

بَلاغةُ التّعريضِ في جُملةِ: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾:

مآلُ مَعرفةِ شأْنِ النِّسْوةِ تبيُّنُ حَقيقةِ مآلِ يوسفَ عليه السلام

في قوله تعالى: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ تعريضٌ بنفسِ يوسفَ للمَلِك، كأنّه قال: ما بالي؟ وما مآلُ الأمرِ في قضيّتي؟[3].

نُكتةُ مَجيءِ الفعْلِ ﴿قَطَّعْنَ﴾ مُضعّفًا:

يَذْهَلُ الإنسانُ عنِ الألَمِ إذا استغرَقَ فيما يَشغَلُه عنه

جاء الفعلُ ﴿قَطَّعْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بصيغةِ التّضعيفِ اللّفظيِّ المُفيدِ للتّضعيفِ المعنويِّ، للدّلالة على المُبالغةِ في القطع، وفيه إشارةٌ إلى ما اسْتَحوذَ عليهنّ من حال الذّهولِ والاستغراقِ في ملاحظةِ يوسفَ عليه السلام بما حجبَ الحاسّةَ عنِ استشعار

(1) صافي، الجدول: 12/448.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/447.
(3) عفيف، الشّامل: 2/85.

القطْعِ وهو يحصُلُ، وهذا يحصُلُ من شدّة الفناءِ في الشّيء والاستغراقِ فيه.

بَلاغةُ الكنايةِ في جُملةِ: ﴿ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۖ﴾:

فيما جاء من قول يوسف ﷺ المعبّر عنه في قوله تعالى: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۖ﴾ كنايةٌ عنِ النّسوة اللّاتي دعتْهُنّ امرأةُ العزيز وأعتدتْ لهنَّ مجالسَ يتّكِئْنَ عليها لِيَرَيْنَ يوسفَ ويَعذرنَها لفرْطِ حُسْنِه وجمالِه[1]. وفي قوله هذا ﷺ تحرٍّ للسَّترِ؛ لأنّ الأصلَ إثباتُ البراءة لا فضْحَ النّسوةِ.

تَحَرّى السَّترَ؛ لأنّ الأصْلَ إثباتُ البراءةِ لا فضْحَ النّسْوةِ

نُكتةُ تعْيينِ ﴿ٱلنِّسۡوَةِ﴾ موضوعًا لسؤالِه دونَ (امرأة العزيز):

جعل يوسفُ ﷺ طلبَ مُفاتَشةِ النّسوةِ موضوعًا لسؤاله في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾، فطلبَ السّؤالَ عنِ النّسوة لا عنِ امرأة العزيز مع كونِها أصلَ القضيّة ومحورَها وطرفَ الخصومةِ الحقيقيَّ فيها، وذلك لعدّة نكاتٍ:

مُراعاةُ المَصالحِ والمفاسِدِ عندَ تبيُّنِ الحقِّ

الأُولى: أنّ النّسوةَ شهودٌ على الأمْر وضالعون فيه، فأراد أنْ يستعينَ بالشّهود أوّلًا، تأسيسًا لِلْبَيّنة واستدلالًا بالحُجّة تمهيدًا له بين يدي المَلِك.

الثّانية: احتياطًا واتّقاءً لإنكار امرأة العزيز، إذِ هي طَرفٌ في الخصومةِ، والغالبُ أنْ تظهرَ براءةُ البريء بحُجَج دِفاعِه لا بإقرار خَصْمِه، فلم يعتمِدْ على إقرارها لعدم ضمانِه.

الثّالثة: أنّه امتنع عن ذِكْرِها تكرّمًا منه بحُسنِ العهدِ لها، إذ كان في بيتها مُكَرَّمًا بأمرِ العزيز لها ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: 21].

الرّابعة: احترازًا عن مَكْرِها، إذِ اعتقدَها باقيةً في ضلالِها القديمِ، وأمّا النّسوة فقد كان يطمعُ في صَدعِهنّ بالحقّ وشهادتِهنّ

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.

بسببِ إقرارها لهنّ بأنّها راودَتْه عن نفسِه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصْفِهنّ بتقطيع الأيدي، ولم يُصرّح بمراودتِهنّ له.

الخامسة: لم يذكرْها في سؤاله اتّقاءً لنفوذها ونفوذِ زوجها أنْ يحول التّصريحُ بها في صدّ المَلِك عنِ استيفاء التّحقيقِ في الأمر، رعايةً منَ الملِك لمقام العزيزِ زوجِها صاحبِ المكانةِ عنده[1].

بَراعةُ الإيجازِ بكِتْمان القصّةِ عنِ المَلِك:

بـالـبَـحْـثِ والتّحَرّي، ودقّةِ الاسْـتِـغْـلامِ تَتحقّقُ البراعةُ

أمر يوسفُ ﷺ الرّسولَ بأن يسأل المَلِك، ويَستفهمَه عنِ الأمر، ولم يكشفْ له عنِ القصّةِ، ولا أوضحَها له؛ لأنّ السّؤالَ مجملًا ممّا يُهيّج الملكَ على الكشفِ والتّحَرّي، والبحثِ والاستعلام، فتحصلُ البراءةُ. وإنّما كان السّؤال المجمَلُ يُهيّجُ الإنسانَ، ويُحرّكُه للبحثِ عنه؛ لأنّه يأنفُ من جهلِه وعدمِ علمِه به، ولو قال: سَلْهُ أن يُفتّشَ عن ذلك، لكان طلبًا للفحصِ عنه، وهو ممّا لا يُتسامح ويُتساهلُ به، وفيه جرأةٌ عليه، فربّما امتنعَ منه، ولم يلتفتْ إليه[2].

بَلاغةُ فصْلِ جُملةِ الفاصلةِ عمّا قبْلَها:

اخـتِـسـابُ الـقَـضـيّةِ عـنـدَ الله بعد رفْعِها للتّحكيمِ

جملةُ: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ استئنافيّةٌ، وهي كالتّفريع بالتّفويض بعد رجاءِ ما قُرِّر قبْلَها، كأنّه قيل: اسألوا عن حال النّسوةِ وأسرارِهنّ، ومهما يكن من شيءٍ خفِيَ عليكم أو ظهرَ لكم في أمرِهنّ فإنّ ربّي حسيبٌ عليهنّ وأعلمُ بكيدهنّ، وفصَلَ الجملةَ ولم يَعطفْها بالواو أو بالفاء، لإجرائها مجرَى التّفويض والحُكم المُستقلّ؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ كأنّه إشهادٌ للّه عليهنّ ليحكُمَ بما يشاء في أمرِه، وهذا من كمال نُبوّته ﷺ: أنّه لم يَتّكِلْ على بلوغ مسألتِه للملِك، لا سيّما بعد حَظْوتِه عنده واقترابِه منه بعد تعبيرِه لرُؤياه، بلِ اتّكلَ على اللّه سُبحانه وآوَى إلى حُكْمِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/447، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/184.

وتضرّعَ إليه بصفاتِه، فإنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وإنْ كان خبَرًا في معناه، إلّا أنّه في حُكمِ الإنشاء بدلالة معناه على التّوسّلِ والدّعاء بصفةِ العِلمِ الإلهيّةِ، فكأنّه لمّا سأل المَلِكَ أنْ يُفتّشَ في موضوع النّسوة معه، أتْبعَ ذلك بسؤال الله أنْ يَحكُمَ فيه بعلمِه الّذي لا يفوتُه شيءٌ، فأتْبَعَ ما ليس مضمونًا بما هو مضمونٌ؛ لأنّ المَلِك قد يَقْصُر علمُه وعزمُه عن متابعة الأمر وإدراكِ حقيقتِه، وأمّا الله سُبحانه، فقد أحاط بكلّ شيءٍ علمًا.

وإنّما ساق سُؤلَه لله بلفْظِ الخبرِ بعد سُؤْلِه للملِك بلفْظِ الإنشاء، ليَقعَ اللّفظُ منه موقعَ الثّناء على ربِّه والإجلالِ له، فيتضمّنَ عبوديّةَ الثّناء وعبوديّةَ الدّعاء، ولتضمينِه معنى الرّضا التّامِّ بحُكم الله، فهو لا يحتاجُ أنْ يسأله لأنّه مُتقرَّرٌ عنده أنّه عليمٌ حكيمٌ، فهو راضٍ بآثار صِفاتِه في أقضيتِه وأحكامِه في كلّ حالٍ. وفي اصْطفاءِ تلك الجملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ لختْم الفاصلةِ تعليمٌ للمؤمنين أن يَستعينوا على قضاء حوائجِهم مع النّاس بتفويض الأمرِ كلّه لله، كما فعل يوسفُ عليه السلام إذِ التَمَسَ قضاء حاجتِه منَ النّاس ثمّ ولّى عنهم إلى ربِّه بمُناجاتِه وحُسنِ الثّناءِ عليه سُبحانه[1].

دَلالةُ اصْطِفاء اسْمِ الرُّبوبيّةِ وإضافتِه لضميره:

التّوسُّلُ إلى الله بقديمِ إحسانِه سَببٌ لاسْتِجابَتِه

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (إنّ الله بكيدهنّ عليم)، بل عبّرَ بصفة الرُّبوبيّةِ وأضافَها إلى ضميره ﴿رَبِّي﴾، توسُّلًا إليه سُبحانه بما يقتضي تفضُّلَه عليه وإجابتَه له، إذْ هو في مقام الاستغاثةِ والاضطرارِ، وهو توسّلٌ آخرُ وعِرفانٌ وشُكْرٌ مَكرورٌ من يوسفَ عليه السلام؛ لأنّه ما يزالُ في هذه السّورة يَذكرُ الله ويسألُه برُبوبيّتِه عليه، والله يُجيبُه ويُغيثُه بآثار رُبوبيّته وإحسانِه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.

أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: 23]، ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: 24]، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: 33]، ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [يوسف: 34]، ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 37]، فلا جرَمَ أنْ عبّرَ هنا كذلك بقوله: ﴿رَبِّي﴾ ليُعامِلَه بما عوّدَه إياه منَ العِصمة والفضلِ والإنقاذِ والتّمكينِ.

دَلالةُ إضافةِ الكيْدِ إلى ضميرهنّ:

إضافةُ الكيْدِ إلى ضمير النّسوةِ في قوله تعالى: ﴿بِكَيۡدِهِنَّ﴾ إضافةٌ لأدْنَى ملابسةٍ، إذْ إذِ الكيدُ واقِعٌ من بعضهنّ، فليس كلٌّ واحدةٍ فيهنّ كادتْ بيوسفَ، ففي الإضافة إبهامٌ وتعميمٌ بقصْدِ التّعريضِ بمَنْ صدرَ منها كيْدٌ ومراودةٌ منهنّ له، وتعريضٌ بامرأة العزيز بنسبةِ الكيْدِ إليهنّ لا لها، من باب: إيّاكِ أعني، واسْمعي يا جارةُ[1].

إيكالُ عِلْمِ ما في ضَمائرِ الخَلْقِ إلى الله

ونسبةُ الكَيْد إليهنَّ والكائدةُ واحدةٌ هي امرأةُ العزيز أو بعضُهنّ، تأدُّبٌ منه ﷺ، ودفعٌ لِما عساه أن يُحجمَ المَلكَ عن تنفيذ رغبةِ يوسفَ رعايةً لزوجِها عزيزِ مصرَ[2].

أَدَبُ الخِطابِ خُلُقُ الأنبياءِ

نُكتةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ:

عبّرَ بالجملةِ الاسميّةِ المؤكّدةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾، ولم يَقُلْ: (إنّ ربّي يعلم) للدّلالةِ على دوام علْمِه، فهو سُبحانه لم يَزَل عالِمًا بذلك، وللدّلالةِ على أنّه سُبحانه يعلمُ بالأشياء قبْلَ وجودِها الخارجيِّ، إذْ كيدُهنّ حاصِلٌ في صدورِهنّ قبل حدوثِه منهنّ، فهو بذلك يَستشهدُ بعلْمِ اللّه على براءتِه وعلى مَكيدتهنّ له، فالاستشهادُ هذا في حقّه وعْدٌ، وفي حقّهنّ وعيدٌ[3]. وفي توكيدِ الخبرِ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسْميّةِ الجملةِ أيضًا، إعلامٌ ببراءتِه ممّا اتّهمتْه به امرأةُ العزيزِ[4].

اللهُ يَعْلَمُ بما يكونُ قبْلَ كَوْنِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/447.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.

نُكتةُ التّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ تعريضٌ لرسولِ المَلِك ألّا يسألَ، وألّا يتدخّلَ في تفاصيل الأمرِ، ولْيحملْ رسالةَ يوسفَ عليه السلام من غير تعليقٍ[1].

وما عَلَى الرَّسولِ إلّا البَلاغُ

نُكتةُ المُبالغةِ في صيغةِ (فعيل) لصِفةِ العِلْمِ:

مَجيءُ صفةِ الذّات الجليلةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ على وزن (فعيل) الّذي يَصلُحُ على مِثالِ الصّفةِ المُشبّهةِ ومثالِ المبالغةِ لإفادة معنى الدّيمومةِ؛ أيْ: دائمُ العلْمِ لا يتغيّرُ ولا يَغيبُ، وكاملُ العِلمِ لا يَنْقُصُ، فصيغةُ (فعيل) أفادت استقصاءَ التّعبيرِ عن إحاطةِ العلم وسَعتِه بكلّ ما تحملُه كلمةُ الإحاطةِ والسّعةِ من معنًى ومدلولٍ، فكيف إحاطتُه سُبحانه بكيدهنّ الّذي هو جزءٌ ضئيلٌ في مُتعلَّقات صفةِ عِلمِه الواسعِ، فلا يَفوتُه ولا يُعجِزُه ذرّةٌ منه[2].

صِفاتُ اللهِ واسعةٌ مُحيطةٌ لا يُحاذيها مِثالٌ ولا مِثالَ لها

عِلّةُ ختْمِ الآية بصِفةِ العلمِ:

ختْمُ الآيةِ بصفةِ العِلمِ لمُلاحظةِ المعلوماتِ المذكورةِ في المطلَعِ، وهي الأحوالُ المُنْكَشِفَةُ بتلك الصّفةِ، فلا يُجَلِّيها إلّا العِلمُ، وهو سؤالُه عن حقيقة أمْرِ النّسوة فيما يتّصلُ بشأنِه مع امرأة العزيزِ ومعهنّ، فخشِي الإنكارَ منهنّ فأوكَلَ ذلك إلى عِلْمِ اللّه الثّابتةِ فيه براءتُه وتُهمتُهنّ، فنَاسبَ أنْ يختِمَ بما لا تنكشِفُ الحقيقةُ إلّا به.

فوقَ كلِّ ذي عِلمٍ عليمٌ ولا منتهَى لعِلْمِ اللهِ

بَلاغةُ تقديمِ مُتعلَّقِ الخبرِ:

لم يقل في السّياق الكريم (إنّ ربّي عليمٌ بكيدهنّ)، وإنّما قدّمَ الجارَّ والمجرورَ المضافَ لضميرهنّ: ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ الّذي هو متعلّقُ الخبرِ ﴿عَلِيمٌ﴾، لإفادة الاختصاصِ والقصرِ، كأنّه قال: هو كيدٌ

ما خَفِيَ كُنْهُهُ عَظُمَ خطَرُهُ

(1) عفيف، الشّامل: 2/85.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/324.

عظيمٌ لا يعلمُه إلّا اللّه، وهذا تعظيمٌ لكيدِهنّ ومبالغةٌ في آثاره منَ السّوءِ والشّرِّ، والقَصْرُ ادّعائيٌّ على معنى أنّه أراد أن يُبالغَ في كيدِهنّ فادّعى أنّ العِلمَ بكيدِهنّ منحصِرٌ في عِلْم علّام الغيوب، مع أنّ العِلمَ بكيدهنّ به مشهورٌ مُذاعٌ في النّاس، بدليلِ قولِ المَلِك لهنّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أوِ القَصْرُ حقيقيٌّ إذا أريدَ حقيقةُ الكيْد وكُنْهُه ومواقِعُه في الصّدور، فإنّ ذلك لا يعلمُه إلّا اللّه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البالُ) و(الخطْبُ):

الخطْبُ هو حالٌ ظاهرةٌ مخصوصةٌ والبالُ حالٌ باطنةٌ

(البالُ): هو الحالُ الباطنةُ للإنسان، وهو الكيفيّةُ الشّعوريّةُ الّتي تنطوي عليها نفْسُه ورُوْعُه. ولذا قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمد ﷺ: 5]؛ أيْ: يَهْديهم ظاهرًا باستقامة السّلوكِ، ويُصلِحُ بالَهم باطنًا بسكينةِ النّفسِ وسلامة الخاطِرِ. وأمّا (الخطْبُ): فهو الحالُ والشّأنُ الّتي يقع فيها التّخاطُبُ، فهي حالٌ مُقيّدَةٌ بأمْرٍ خارجيٍّ ظاهرٍ، وعُمِّمَتْ في الاستعمالِ في كلّ شأنٍ فادحٍ وإنْ لم يَقع فيه تخاطبٌ ومُجاذَبةٌ تنزيلًا له منزلةَ ما يقعُ فيه ذلك، لاشتماله على سببِ المخاطبةِ، وهو معنى الاكتراثِ والشُّغْلِ الّذي يحملُ غالبًا على المراجعةِ والخطابِ، وعدمِ السّكوت والسّكونِ، وعليه: فالبالُ مُغايرٌ للخَطْبِ في تعلُّقِهما وإنْ اشتركا في الدّلالةِ على عموم الشّأن والحالِ[2]. ومن هنا كان اختيارُ لفظِ (البال) بما يتضمَّنُه من دلالةٍ على الظّاهر والباطن أنسبَ لسياقِ السّؤال عن حال النّسوةِ وقد أتيْنَ بفعلٍ مُستَهجَنٍ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/352، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/447.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بول - خطب)، والرّاغب، المفردات: (بال - خطب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بول - خطب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»